ابن خلدون والترجمة الذاتية

عبد القادر السميحي*

دارسو آثار ابن خلدون يعرفونه كإنسان نشر نفسه نحو الآخرين نشراً متسعاً، اتساع الحياة نفسها، لا يلفونه إلا راصداً متتبعاً مجريات سير الحياة ومشيئاتها، وما يذهب وينشأ فيها من أحداث قلما تعبر دون أن تذر معطياتها الوجودية، وآثار انطباعاتها، إن في النفوس الإنسانية، أو في الحياة ذاتها على نحو ما.

كثيرون أولئك الذين سيشاهدون سير الحياة، إن في مآسيها المفجعة، أو هزات أفراحها، ويمارسون عناءها ورخاءها، ثم تمضي الحياة في سبيلها، ويمضون هم في سبيلهم، دون أن يضيفوا شيئاً إلى معطيات الحياة، أو تضيف هي شيئاً إلى وجودهم. وقليلون هم أولئك الذين يتجاوبون بإحساسهم مع الحياة ويشعرون بوجودها، شعوراً حياً منفعلاً كاملاً متصلاً، لأنه ينطوي على أشد الإمكانيات إيقاظاً وإثراءً

---

* قاص وروائي – المغرب

وتلتوي جذوره بالداخل انطواء وانطلاقاً.

وابن خلدون العظيم من هؤلاء؛ بل هو قد شذ عن القياس في أعلى درجة.

لقد عاش حياته، وعاش حياة الناس، واستنفذ إمكانياتهما. لأنه عانى التجربة الحية عناء شاركت فيه الروح الجسد، وشعر باجتماعية الحياة، حتى أصبح كالجرس إذا اصطدم بشيء رن، وكالمرصاد يسجل أدق الفروق والتغيرات الجوية، انخفاضاً وارتفاعاً. فتسجيل الأحداث شيء ضروري عنده، ضرورة التنفس للكائنات. وبالإضافة إلى هذه الحساسية المرهفة، وهب عبقرية متيقظة نادرة هو خالق أفكار .. وموقظ أفكار .. وهذه الصفة الإبداعية هي وحدها التي أثبتت وجوده مدى الحياة. وصدق «جويو» الذي يقول : «من أضاف فكرة إلى تراث العقل الإنساني كان في إمكانه أن يبقى بهذه الفكرة، ما بقيت الإنسانية» ثم يضيف قائلاً : «أما القصائد فإنها تموت بموت اللغات، والتماثيل والعمارات تنهد، وتحلل إلى تراب، ولا يبقى إلا الفكرة»[1].

ويزداد الأمر عظمة حين نرى ابن خلدون يسكن أفكاره أساليب تتصف بالبساطة الفنية، في عهد شاع فيه المذهب الشكلي اللفظي الذي أظلم وضيق بأسجاعه وبجناسه مشارف الفكر، وهو بهذا الترسل المفعم بحرارة الحياة الانطلاقية - والذي امتازت به كتابته - أضاف قيمة أخرى تضاهي ما أسس من مذاهب فكرية، في فلسفة التاريخ والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وما خلق من آراء أبدية الجدة، سبق بها عباقرة أوربا.

وشعر هو نفسه بالأثر الذي أحدثه مذهبه في الترسل في معاصريه، فأشار إلى ذلك في ترجمته الذاتية[2].

هذا هو ابن خلدون كما عرفه الدارسون، عرفوا أن المنبع الدائم

---

1 - «مسائل فلسفة الفن المعاصر» ترجمة سامي الدروبي.

2 - كتاب : «التعريف بابن خلدون»، ص 70 قال : «واستعملني في كتابة ... والترسيل عنه والإنشاء لمخاطبته، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل، أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع، لضعف انتحالها، وخفاء العالي منها على أكثر الناس، بخلاف المرسل فانفردت به يومئذ، وكان مستغرباً بين أهل الصناعة!».

لأعماله، هو العلم الخارجي، والجانب الموضوعي الذي سيطر على حياته وفكره؛ أما الذاتي من آثاره، فلم يعطه الدارسون حقه من العناية عنايتهم بجوانب أخرى من أعماله، لأنه ظل كجزء تابع لتاريخه المسمى بـ «العبر» لا يكاد شيء يميزه بذاتيته، حتى هيأت الأقدار أخيراً من يتولى هذا الجانب بالعناية، بحسبانه عنصراً من عناصر وحدة هذه الشخصية، ويخرجه إلى الوجود، كوحدة قائمة لها معالمها، ومميزاتها الخاصة بها. وهذا الجانب ليس سوى الترجمة الذاتية، كما كتبها ابن خلدون عن نفسه، وسماها «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً». ومُظهر هذا الأثر، هو العالم الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي وأما ما أنفقه من جهد، وما كلف به نفسه من عناء البحث والقراءة امتدت أبعادها إثراء ومدى، حتى الإرساب ... تجوس وتحسس كل كلمة من كلمات ابن خلدون، وتمثل معانيها القريبة والبعيدة ثم ما حرص على اتباعه من منهج جامعي ثابت الأركان، كل ذلك سيجعل كل من يقرأ هذا الأثر الذي أخرجه، يعترف اعترافاً مقروناً بالفضل والتقدير. ولا تسع هذه الكلمات أن تقوم بالوفاء بحقه كاملاً. إنه شيء لا يمكن التحدث عنه إلا بالافتخار.

قصة الكاتب

يقول جويو : «يجب أن يعشق المرء فكرته حتى يشعر بالحاجة إلى إخراجها» وفي هذه الكلمة تتلخص قصة إخراج كتاب «التعريف».

***

حينما كنا نختلف إلى قاعة المحاضرات بجامعة القاهرة لسماع درس أستاذنا أمين الخولي، كنت أشد حرصاً على تلقي كل كلمة يقولها وكتابتها، رغم عدم تحبيذه هو لهذه الطريقة. إذ يرى من الخير أن يسمع الطلبة ما يلقى عليهم بانتباه ويتفهموه، ثم أثناء الاستراحة التي تتخلل الدرس، عليهم أن يدونوا ما سمعوه وفهموه، في عبارات مركزة ومع ذلك فقد كنت أخالف هذه التعاليم، واكتب كل شيء أثناء الإلقاء دون أن يفوتني بعض الفهم، وكنت مدفوعاً لاعتبارات ارتأيناها، ذلك أني كنت أشعر أن الأستاذ أمين الخولي، وهو يلقى الدرس على هذه

الحالة، التلقائية الطبيعية، غيره في كتبه، فمن منا لم يأخذه ذلك الانطلاق في عرض الآراء عرضاً واضحاً مرناً، يشارك فيه الانفعال التصوير، وتكاد إشارة اليد تحدد معالم هذه الآراء، كعصا «الأوركسترا» وكل شيء في هذا الجو، وهذه الومضات، الكل كان يساعد على إسكان هذه الآراء ألفاظاً تسعها، وتعرضها للضوء. وبمضي الأيام اكتسبت نوعاً من القدرة على تفهم وتمثل معالم المنهج الجامعي، كما كان يرسمه أستاذنا، ولا زال صدى بعض تعاليم هذا المنهج تتردد في نفسي : «اقرأ .. ثم اقرأ ..» واليوم، وأنا أقرأ ثمرة هذا المجهود الناضج الخصب، الذي أضافه الأستاذ محمد بن تاويت ضمن هذا الأثر من تراث ابن خلدون تذكرت الحقيقة الخالدة «اقرأ ثم اقرأ ثم اقرأ» وأدركت مقدار ما يعانيه الباحث، وما ينفقه من جهد، وما تتطلبه طبيعة هذا العمل، من صبر وأناة، لإخراج نص من النصوص من الوجهة العلمية لا فيما يتصل بمقارنة المخطوطات، ووصلها ومعارضتها بأصولها القديمة، المكتوبة بخط المؤلف، وما يتفرع عنها من نسخ قد تتغير بمضي الزمان وتلحقها عوامل الفساد، من نقص وزيادة، وتصحيف وانتحال، ولا فيما يتصل أيضاً بتقويم النصوص من حيث الأوضاع اللغوية وشرح ما أبهم معناه فحسب؛ بل كذلك من حيث تقويم النص من جوانب أخرى يتصل بعضها بتصحيح الحوادث التاريخية، من حيث المكان والزمان، وما يضفي على النص من شرح، وتعليق، يشعر الدارس بقيمة النص معها. ولا أكون غير صادق إذا ارتأيت أن من يخرج أثراً من تراث الإنسانية المندثر ويحييه ويعيد إليه ما تلف منه على الوجه السالف الذكر، أقول إن مثل هذا العمل الذي يتكلف بقيامه الباحث، لا يقل أهمية ولا قيمة عن عمل مؤلف الأثر نفسه سواء بسواء. والمفروض أن أي أثر ما دام على وجه يتصف بالنقص والتلف، أو بالأحرى ما لم يعثر له على أثر وإن كان سجل التاريخ ضمن شيئاً عنه، فحكم هذا الأثر كعدم وجوده. وهنا فقط تظهرأهمية مناهج البحث، وبخاصة تلك المؤسسات العلمية الحديثة، وما أعد لها من علماء مختصين عاملين، ومعامل للتحليل الكيماوي، وأجهزة بصرية مكبرة، وكل ما تحتاج إليه طبيعة هذا العمل من سجلات حافلة بالتاريخ الإنساني على تفاوت أبعاده واختلاف زمانه

وكل ما من شأنه أن يعين على دراسة أثر من الآثار الإنسانية، وإعادة ما تلف منها سواء كان هذا الأثر مكتوباً، أو مصوراً، أو منحوتاً، أو منسوجاً، ففي «هولندا» نجد معملاً خاصاً أُعِد لهذه الغاية. فإذا أريد ترميم صورة تالفة، أو كاسفة الألوان، من صوَر أحد الفنانين الخالدين أمثال «رفائيل» - أو «ميشل أنجو» - أو «دا فنشي» فهنا نجد الجهود العلمية والفنية تتجمع لدراسة الصورة من جميع الوجوه الإمكانية قبل الشروع في عملية الإصلاح. فتتلقاها أيدي مؤرخي الفن، ومعامل التحليل الكيماوي من دراسة أنسجة الثوب الذي رسم عليه، والألوان ومقدار تشبعها بالضوء أو الظلال، ومقدار عمقها أو انفتاحها ثم عرض الصورة على الصورة الأصلية أو المقلدة، إن كان التاريخ الفني سجل لها نسخة منها، وحين تنتهي كل هذه الدراسات العلمية والفنية بعد إعداد التقارير الضرورية، تبدأ عملية الترميم بكل دقائقها، حتى تعاد الصورة التالفة إلى ما كانت عليه، بحيث لو بعث مصورها، ورآها لما أنكرها. والأمر كذلك بالقياس إلى الآثار المنسوخة والمنحوتة والمخطوطة على حد سواء.

إلى هنا ندع الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي يحدثنا بنفسه في مقدمته لكتاب «التعريف» الذي حقق معالم وجوده على وجه لا يقل أهمية عن أعمال المؤسسات العلمية السالفة الذكر. وسنرى الخطوات التي اتبعها، وإلى أي مدى ذهب في تقصي آثار المخطوطات في مكاتب مصر وتركيا والشام. وفيما يلي بعض العناصر التي اشتملت عليها مقدمته للكتاب :

(1) الدواعي الرئيسية لإخراج هذا الكتاب :

«حينما اخترت مقدمة ابن خلدون موضوعاً لدراستي، وجب علي أن أعرف ابن خلدون مؤلفها، وكانت معرفته عن طريق حديثه عن نفسه من أهم ألوان هذه المعرفة وأوكدها؛ ومن هنا قرأت هذا الكتاب طلباً لمعرفة ابن خلدون، فعرفته منه على الصورة التي أراد أن يعرفه عليها الناس.

ثم قرأت بعد ذلك ما كتبه عنه معاصروه ومن تبعهم، فوجدت

صورة أخرى غير التي عرفتها منه، وعدت إلى ابن خلدون مرة أخرى وفي ذهني عنه صورتان؛ صورته كما رأى نفسه، أو كما أراد أن يراه الناس، تأنق في صنعها، واستمسك بظلالها وألوانها. وصورته كما رآه معاصروه، أو كما أرادوا أن يروه، ويراه معهم الناس، عرف ابن خلدون أكثر معالمها فأنكرها في ألم وترفع؛ وهو اختلاف يثير الرغبة في تعرف أسباب الموافقة ودواعي الخلاف.

وهكذا قدر لي أن أقرأ الكتاب قراءة مقارنة، رغبة في الوصول إلى معرفة أقرب صور ابن خلدون إلى الحقيقة.

وعز علي أن تضيع قراءتي لهذا الكتاب، وهو المفتاح الأول لمعرفة شخصية ابن خلدون، فاستعنت بالله على إخراجه كاملاً إلى حيز الوجود[3].

(2) منهج البحث

«وأخذت أتمثل المنهج الذي يجب أن أتبعه في تحقيقه ونشره بين الناس؛ ولم يلبث أن وضحت معالمه مجملة في كلمات : «أن أخرج النص كما أراده مؤلفه أن يكون»؛ كلمات حقيقية الوقع على الألسن؛ ولكنها عند وزنها في ثقل الجبال».

***

«وكان البحث عن أصول الكتاب المخطوطة، وصلتها بالمؤلف من أولى خطوات تحقيق هذا المنهج، والذي أقصده بهذه الصلة، أن تكون النسخة مخطوطة المؤلف، أو مقروءة عليه تحمل دليلاً على هذه القراءة أو مكتوبة على نسخة مباشرة، أو بواسطة معارضة عليها إلخ.

وليس تحقيق هذه الصلة بالأمر اليسير الهين، فالزمان - بحوادثه - قد ألحق بالجمهرة من عيون هذا التراث الإسلامي ما لا نجهله من ألوان التبديد والإفناء، ولكن الله الكريم شاء أن لا تضيع في هذا السبيل الخطوات؛ فقد أخطأت عين الزمان - وهو الحديد البصر -

---

3 - طبع القسم الكبير من هذا الكتاب مرتين الأولى بآخر كتاب «العبر» وذلك في سنة 1284 بمطبعة بولاق، والثانية على حاشية «المقدمة» بالمطبعة الخيرية بمصر سنة 1322.

نسختين من هذا الكتاب، كلتاهما كانت نسخة المؤلف، وحفظت المكتبات المختلفة نسخاً عديدة منه ومختلفة، وبفضل ذلك استطعت أن أخرج الكتاب معتمداً على المجموعة التالية منها».

وهنا يشغل الأستاذ محمد إحدى عشرة صفحة من مقدمته خصصها لاستعراض الخطوات التي اتبعها فيما يتصل بمنهج تحقيق المخطوطات، ونصوصها، وصلتها بأصولها المباشرة وغيرها، لأن ابن خلدون كان من حين لآخر يضيف إلى كتابه ما جد من الحوادث ويتناوله بتعديلات كانت تمس الأبواب والفصول والمادة. يقول الأستاذ محمد : «ومن هنا كانت نسخ الكتاب جميعه أوجز كلما كانت أكثر تفصيلاً للحوادث وأوسع ولن أعرف عدد النسخ التي صدرت عن المؤلف من كتابه هذا على وجه التحديد؛ غير أنه من اليسير - استناداً إلى ما وصل إلينا من نسخه - أن يرد ما وجد منها بالمقارنة - بينها - إلى أمهات ثلاث :

1 - أم قديمة الصدور عن المؤلف وهي موجزة.

2 - ومتوسطة تزيد قليلاً عن سابقتها، وتنقص الكثير من التفصيلات عن التي تليها.

3 - ثم حديثة العهد بالمؤلف، ويمتد حديثه فيها، وتعديله بالزيادة والنقص وغيرها إلى ما قبل وفاته بشهور».

***

«والأصل الحديث في هذه الأصول هو الذي بقي بين يدي ابن خلدون حتى الأيام الأخيرة من حياته، فظل التنقيح يلاحقه، وحياة ابن خلدون - بما امتدت - تضيف إليه الجديد من الأحداث، وبذلك أصبح ناسخاً للأصول قبله، معبراً عن الرأي الأخير الكامل للمؤلف في هذا الكتاب. ومن هنا كان البحث عن الأصول الأخيرة أساساً أولياً لنشر هذا الكتاب».

(3) اسم الكتاب

وكما اختلفت نسخ الكتاب بما كان يطرأ عليها من تغيير، كذلك حدث في عنوان الكتاب. فهو قد مر بمراحل آخرها هو العنوان التالي :

«التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً» وقد أدى اختلاف العنوان في النسخ المتعددة، إلى قيام مشكلة تاريخية كشف الأستاذ محمد عن حقيقتها وعلتها، فأعطاها حقها من البحث والعناية في مقدمة الكتاب.

(4) هل للباحث أن يعدل نص المؤلف

وبالإيجاب أجاب الأستاذ محمد، وبنى مذهبه على هذا الأساس ما دام الكتاب المخطوط وثقت صلته بالمؤلف من جهة، ومن جهة أخرى ما دام المؤلف كما يقول : «قد اختار أن يكتب باللغة الفصيحة، وتقيد بقواعدها الصارمة» ولهذه اللغة أوضاع مرعية فإذا أخطأ المؤلف في شيء من قواعد هذه اللغة، فهل يملك الباحث أن يعدل النص تبعاً للأوضاع الصحيحة، الجواب عنده بالإيجاب : «نعم نملك ذلك»، وقد تبادلنا الرأي في هذه القضية وقتذاك فأظهرت من الأسباب التي من شأنها أن توجب المحافظة على النص، لأنه أمانة تاريخية؛ ولكنه بدوره أظهر وجهات نظره : منها أن المدرسين أنفسهم أجازوا هذا العمل وشرّعوه، وأحال النظر إلى ما أثاره الأقدمون من إشكال حول ذلك ولهم في ذلك مذاهب فصّل فيها القاضي عياض والسيوطي كما يذكر. وهو في موقفه هذا جارى مذهب السلف، يقول : «ولنا السند المتين فيما قرره المحدثون - منذ القديم البعيد - في الحديث تثبت روايته عندهم وفيه مخالفة لوضع من أوضاع اللغة، والمؤلفون أنفسهم أذنوا في هذا النوع من التصرف، ولم يعدوه افتياتاً على نصوصهم ولو أن المؤلف حي وراجعه قارئ من قرائه فيما وقع له في كتابه من مخالفات لأوضاع اللغة التي يكتب بها، أكان يصر على خطئه الذي لا يفيد التأويل أم أنه كان يسارع إلى الاعتذار، ثم إلى إقامة ما كان قد أخطأ فيه؟

وقد أثبت في هذه الحالة النص في الصلب على ما اقتضته قوانين اللغة، وأثبته في الحاشية على الصورة التي أورده عليها المؤلف، وقصدت بذلك أن يكون النص بالحالة التي وصل بها إلينا عن المؤلف واضح الدلالة على مدى معرفته باللغة، وتمثله لقواعدها، وأن نحيط بالمقدار الذي امتصه الجزء الخارج عن بؤرة التفكير، من نشاط عقل ابن خلدون، حينما كتب هذا النص أو قرأه». ولكن الأثر لا يقف

عند هذا الحد من حيث تقويم النص من حيث الأوضاع اللغوية والنحوية وإنما يتعداه إلى أشياء أخرى يقع في خطاها المؤلف كمسائل التاريخ التي استفاضت مصادر التاريخ الموثوقة في تحديد وقائعها وزمانها ومكانها.

وبالإضافة إلى ما تقدم اعتنى الأستاذ محمد بن تاويت بشرح كل ما يستدعي الموقف شرحه، والتعليق عليه، ضمن حواشي الكتاب وتصحيح الأعلام والأماكن الجغرافية. وهذه الثقافة المستفيضة أضفت على النص شعاعاً عرضه للضوء. يصدق في حقها كلمة الدكتور محمد مندور التي توج بها كلمة إهداء كتاب «الدفاع عن الأدب»، لجورج ديهاميل لوالده قائلاً : «الكتاب ليس لي؛ ولكن فيه آثار جهدي، وإليك أقدم هذا الجهد، لأني لست بدونك شيئاً» وما أكبره وأغناه من جهد، ذلك الذي تلقى آثاره مبثوثة ضمن كتاب «الدفاع عن الأدب»، وكتاب «التعريف» تجعلنا، وتجعل ديهاميل نفسه، وابن خلدون (لو كان حياً) يريان أن ذلك ما يجب أن يكون.

ولا أكون صادقاً إذا قلت إني صوّرت بوضوح المنهج جميعه الذي تضمنته مقدمة الكتاب، والذين سيتاح لهم قراءته سيدركون وحدهم ويجدون أنها أغنى بمكان، مما حاولت إجماله، والإشارة إليه في هذه الكلمات.

كلمة عن الترجمة الذاتية

مهما اختلفت وسائل التعبير عن الذات، فلن يخلو مضمون أحدها من عامل «توكيد الذات» على نحو ما..

وطبيعة الأشياء بمعناها الشامل تقضي بذلك وتختلف مظاهر هذا التوكيد، أو «عرض الذات» شدة ورخاء، وقوة وضعفاً، اتجاه موقف الإنسان من مشاكل العالم الخارجي، والقيم الإنسانية : من خير وشر وعدل وظلم؛ والتعبير عن موقفه من حقائق الوجود والوقائع الوجدانية، ووقع كل ذلك على النفس وأقصى درجة يتمثل فيها أقوى ما نعرفه من مظاهر عدم وجود الذات، هو ذلك الصراع العنيف بين طبيعة العدم وطبيعة الوجود، وأعني بذلك موقف الإنسان من مشكلة الموت.

وهنا نشهد الصراع المستميت بين قوة مدمرة تعمل بكل وسائلها - من مرض، وأحداث القضاء والقدر - لتسلب الإنسان أعز ما يملك، وهي الحياة؛ وبين رد الفعل من جانب الإنسان تتمثل محاولاته وقوته على البقاء بجميع ما يملك من وسائل مشروعة، وغير مشروعة، والعمل بإرادة الحياة، على دعم وجوده واستمراره، ولم يعدم الإنسان وسيلة من وسائل البقاء، حتى أمام الموت - عدوه الأكبر - فنراه يعمد إلى عملية التناسل، وهي آخر وسيلة يملكها لحد الآن[4] لضمان بقاء وجوده واستمراره، جيلاً بعد جيل، وإن كان هذا الوجود في صورة أخرى منسلخة من ذاته، ومستمدة معالمها من شخصيته. وتتمثل علامة النصر على الموت في نظرة الإنسان إلى أبنائه إذ يرى فيهم صورة من صلبه وحياة من نفسه وطبائعه، وتمثل هذه الصورة من «توكيد الذات» أو «عرضها» منتهى إمكانيات الحياة ... والإنسان لا يستكين، ولا يمكن أن يطمئن لوجوده، ما لم يعمل على أو يورث، ويخلف وهو يحاول عن طريق الميراث الوصول إلى غاية، لإشباع حاجة الحياة. وهذا الميل إلى «عرض الذات» إما أن يكون في صورة مادية محسوسة كما هو الأمر في عملية التناسل، أو أعمال الفن المجسمة من نحت وتصوير، أو يكون معنوياً كما في أعمال الفن الإبداعية، فكرية، أو وجدانية، ففي كل ذلك مظهر ما لإبراز «الشخصية الفردية»، ومحاولة فرضها على الآخرين بما لها من إمكانيات غير عادية. ومهما اختلفت أساليب عرض حياة شخص في الترجمة الذاتية، سواء كانت هذه الترجمة تتصف بالروح الفكرية العقلية، أو الروح الدينية، أو التاريخية، أو الوجدانية، فإن عنصر الذاتية في جميعها هو كل شيء في الموضوع. فصاحب الترجمة غالباً ما يجعل من نفسه بطل الحوادث التي يعرض فصولها على مسرح الحياة فهو يسلط عليه الأضواء والظلام، ويحف مواقفه بأشد الوقائع إثارة فكل خيط من خيوط هذه الحياة، يبدأ وينتهي إلى التركيز «حول

4 - ما لم يتغلب في يوم من الأيام على الموت، وميدان الطب يعمل جاهداً للوصول إلى مادة تطيل العمر على الأقل، وقيل إن أطباء روسيا قد يتوصلون لسر الحياة، وإعادة الحياة إلى الميت عقب خروج روحه بدقائق، وهم يجرون اليوم هذه التجارب على الحيوان بنجاح كما يُقال.

الذات» ويدخل في هذا العرض - عرض الذات - جانب هام يتصل بالأبحاث التحليلية النفسية، وهو فكرة «التسامي» عن طريق الفن الذي يجد الإنسان فيه منفذاً لإفراغ الكبت، أو إشباع رغبة من الرغبات التي لم يستطع تحقيقها في الحياة الواقعية، أو إشباع حاجة الحياة أو مجرد صرف ضرب من النشاط الإنشائي لا بد من أن ينفق على وجه من الوجوه، في الأعمال الفكرية والوجدانية، وهذه المشاركة الوجدانية هي أقوى عامل يحقق الفرد عن طريقها أغراضه، ويشبع حاجته. فالتعبير عن الذات ينطوي على الإحساس والشعور بالجماعة، ولولا هذه الجماعة ما فكر الإنسان في أعماله الإبداعية ووصف شعوره، ونقله إلى الخارج ليرى مدى أثره في نفوس الآخرين، وما يوقظ من أفكار تنتشر هنا وهناك؛ فلأجل من ينتج الإنسان ما ينتج إذا لم يتحدث به إلى الناس فهناك جانب من نشاط الذات لا يتحقق وجوده بدون الجماعة، فهي حاضرة في ذهن الإنسان، حتى ساعة تفكيره الإنطوائي .. يقول جان دوًا : «من يتحدث إلى ذات نفسه إنما يتجه في الحقيقة إلى العالم الخارجي، لأن مثل هذا الأمر لا يحدث إلا بتصور شخص آخر يبادله الحديث، فالنشاط الذهني عند الإنسان يحاول بالطبع أن يقيم ضرباً من «الثنائية» أو ظلاً معنوياً»[5].

تعريفه للترجمة

جاء في دائرة المعارف الأمريكية Ency. Americana، مادة Biography : «والترجمة تختلف عن التاريخ بالنسبة للحوادث العامة، وموقف كل منها، ويكفي أنها لا تنظر إليها إلا من حيث صلتها بالشخصية المترجمة فهي لا تدور إلا في دائرة حياة الشخص».

وجاء في دائرة المعارف البريطانية عن التعريف الحديث لكلمة «الترجمة» : «هو تصوير أمين لنفس من النفوس، في مغامرتها خلال الحياة» وفصلت بعد ذلك بعض الحديث عن تاريخ هذه التراجم، وأن أول ترجمة ذاتية مشهورة في الأدب الأوربي هي «اعترافات القديس

5 - مجلة «علم النفس» العدد الثالث من المجلد السادس مايو سنة 1951.

أغسطين» وهي تصور اكتشافه لصدق العقيدة «الكاثوليكية» وظلت هذه الترجمة وحيدة كنموذج للتحليل النفسي الذاتي، حتى القرن السابع عشر الميلادي، حيث ظهر عدد كبير من التراجم الذاتية مثل ترجمة "Bunyan" وترجمة «بنفنتو تشليني» لنفسه، ويوميات «بوركهارت»، وعلى الرغم من سبق «روسو» في اعترافاته، فإن الفضل في هذه الترجمة الذاتية يعود إلى أحد الإيطاليين، وهو «جيوڤاني جاكابو كازانوفا» البندقي. فقد كتب مغامراته عن الحب، والتي وصفت بأنها مخزية، ظهرت هذه الترجمة عام 1826م بينما ظهرت ترجمة «روسو» عام 1783م الذي أعاد فتح هذا الباب الذي أغلق منذ زمن القديس «أوغسطين» وهناك ترجمة المؤرخ الأنجليزي «جبوب» المسماة بـ «المذكرات Memoirs»، وبعد مدة ظهرت ترجمة إسكندر ديماس (الأب) ثم كثرت الترجمة الذاتية مثل ترجمة «بيرلبوز» - بنيامين - فرانكلين - سير والتر سكوت - تولستوي - ديستويفسكي - جون هنري نيوحان - وألفريد دي موسيه في اعترافاته البوهيمية الحسية - وجورج صاند ... وقد كتب جورج ستن بحثاً سمّاه «تاريخ التراجم الذاتية».

الترجمة الذاتية العربية

والتراجم العربية تلتقي من وجوه مع التراجم الأوربية. ولسنا بسبيل المقارنة بين خصائص التجربة الروحية في كل منهما، وعناصر موضوعهما، وأسلوب معالجتهما لهذا النوع من عرض الحياة. وهناك على سبيل التمثيل لا الإحصاء رحلة ابن بطوطة، ورحلة ابن جبير وترجمة السيوطي، وترجمة لسان الدين بن الخطيب، وترجمة ابن خلدون هذه، التي سجل فيها حياته في شيء كثير من الأناقة، والعناية الفنية لعرض سير هذه الحياة منذ مرحلة الشباب، إلى آخر مرحلة من حياته.

والذين سيقرءون هذه الترجمة، سيدركون إلى أي مدى تتصل هذه الترجمة بفهم شخصية ابن خلدون؛ وكما يقول مخرج هذا الأثر : «والكتاب كما قدمت مفتاح أول للذي يريد التعرف على ابن خلدون».

لقد وقف الكثيرون - ولا يزالون - وقد أخذتهم الدهشة أمام مقدمة ابن خلدون المشهورة، يتساءلون : - أين أتى ابن خلدون بكل هذه الأفكار والنظريات، وكيف خلّف هذه المصطلحات، التي هيأت له التعبير عن هذه التجارب. إنها الأصالة والعبقرية التي تفرض نفسها على الآخرين، وتحمل النور في الظلام، وتدفع الحياة إلى نوع من التقدم والنمو، وتحرك بأفكارها كثيراً من النفوس، ستجد الجواب عن كل هذه الأسئلة في ترجمته الذاتية هذه. ولدراسة الشخصية، يجب معرفة هذه الشخصية؛ وسيرى قارئ هذه الترجمة إلى أي مدى استنفذ أغراض حياته وحياة الآخرين، فهو قد عاش في السوق والكوخ والقصر والمدينة، وقطع الأبعاد المكانية، حتى نما وجوده الذهني والوجداني وهيأ له هذا النضج التعبير العميق الصادق عن هذه التجارب العميقة الجذور، مستمدة من الطبائع الإنسانية. ولم يكن يسجل هذه الأحداث وهو بعيد عنها، وإنما استغرق في خضمها حتى الإغمار فالإرساب، فهو قد وجّه مهام الدولة وقام بأعبائها في السياسة وتولى أرفع المناصب في الدولة : من كاتب السر والعلامة، وهذه الوظيفة بمثابة (حامل أختام الملك) في الإمبراطورية البريطانية، وتولى الحجابة وهي تساوي رئاسة الدولة، أو رئيس الديوان الملكي، وهذه الوظيفة يستقل صاحبها بتدبير الدولة. ثم هو يقوم بأعمال السفارة بين الدول وربط العلاقات السياسية والأدبية.

***

يذكر الأستاذ سلامة موسى عن جيته الألماني، أنه كان يشكر الأقدار على أنه رأى في حياته حرب السنين السبع والثورة الأمريكية والثورة الفرنسية، وحرب نابوليون؛ وكان يقول : إن هذه الكوارث قد زادته حكمة وبصيرة، وزادته وجداناً، إذ زادت أبعاده التاريخية والجغرافية والروحية .. وابن خلدون العظيم قد شهد الكثير، وتأثر به، وأثر في حياة الآخرين.

وكتاب «التعريف» تولت «لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعه على نفقتها، ويقع الكتاب في 500 صفحة، ولا أزيد على هذه الكلمات سوى تقديم وافر الشكر للأستاذ محمد بن تاويت الطنجي على

ما بذله من جهد صادق لإخراج آثار ابن خلدون، هذه الشخصية التي هي أغنى ما يملكه العرب حتى اليوم[6].

6 – كتب هذا البحث في سنة 1953 وهي السنة التي ظهر فيها الكتاب. وكان الأستاذ بنتاويت لا يزال حياً.